الشبهة العاشرة

رواة السنة بشر غير معصومين

أعداء الحق منذ قديم الزمان، لهم حيل وأساليب ما كرة فى رفض الحق، وتشويه صورته، لأنهم لا يكتفون برفض الحق، وحرمان أنفسهم منه، ولو كانوا قد فعلوا ذلك لكانوا أنصاف عقلاء.

ولكن كراهيتهم للحق، من حيث هو حق، جعلتهم يعملون - جاهدين - على صد غيرهم عن الحق. وهذا من الطباع المنكوسة فى أخلاق بعض الناس، لذلك سهل على الشيطان مقادهم، وأخذ يمدهم بما هم فى حاجة إليه فى وقف الحق عن الزحف والانتصار، ولكى يظلوا فى ضلالهم يعمهون.

ومن هذه الحيل والأساليب الماكرة عند منكرى السنة المعاصرين، قولهم: إن رواة السنة عن رسول الله ﷺ بشر يخطئون ويصيبون، فهم إذن غير معصومين، فكيف نؤمن بصحة وصدق ما رووه لنا من مئات الآلاف من الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ.

ويضيفون إلى شبههم هذه شبهة أخرى عارضة، خلاصتها أن الواحد منا إذا قال كلاما فى مجلس، ثم أراد حكايته فى مجلس آخر، فإنه لا يستطيع أن يحكيه على صورته الأولى، بل لا بد من التغيير والتبديل فى الألفاظ والمعانى وإن قرب العهد بين المجلسين: مجلس البداية ومجلس الحكاية.

تفنيد هذه الشبهة ونقضها:

إن لله فى الحياة سننا نافذة فى خلقه، ومن سننه أنه خلق الملائكة، والجن، والبشر، وركب فى البشر طبيعتين: طبيعة الخير، وطبيعة الشر.

أما الملائكة، فقد جبلهم على الطاعة والخير، والشياطين مطبوعون على الشر.

وأرسل رسله إلى خلقه من الجن والإنس فمنهم من يهتدى حتى يبلغ أعلى عليين، ومنهم من يضل حتى يهوى أسفل سافلين، وصلحاء البشر فيهم صلحاء شبيهون بالملائكة فى الإيمان والطاعة والاستقامة وفى مقدمة هؤلاء الصلحاء الرسل وتابعوهم.

فليس الوصف بالبشرية نقصا من حيث البشرية نفسها وإنما معايير النقص والكمال رهينة بكسب الإنسان وعمله.

ومن سنن الله النافذة أن جعل البشر يديرون شئون أنفسهم بأنفسهم على هدى من رسالات الله إليهم لا تديرها لهم ملائكة ولا شياطين، وهذا هو مقتضى التكليف أو المسئولية كما يعبر عنه فى الفكر الحديث.

إذن فإن رواية الحديث عن طريق البشر ليست بدعا من السلوك، ولا سبة تقدح فى سلامة السنة من التحريف فى ألفاظها ومعانيها.

وتوصلا إلى هذه الغاية نشأ فن أو علم الجرح والتعديل، هذا الفن، أو العلم وقفه علماء الحديث على معرفة أحوال الرواة من التابعين وتابعيهم ومن غيرهم، وصنفوا الرواة أصنافا مختلفة، ووضعوا لقبول الرواية من كل راو شروطا محكمة.

والتعديل يعنى وصف الراوى بالعدالة إذا توفرت فيه شروطها، والتجريح، يعنى معرفة الرواة غير العدول الذين لا تقبل رواية الحديث عنهم.

فالحديث الذى يقبل من حيث روايه ينبغى أن يكون الراوى، ضابطا ثقة، وهو المسلم البالغ العاقل، السالم من أسباب الفسق وخوارم المرءوة، المتيقظ غير المغفل (الغافل) وأن يكون حافظا إذا حدَّث من حفظه، فاهما إذا حدَّث على المعنى فى الرواية الشفهية (ينظر الباعث الحثيث: ص ٩٢ وما بعدها) للإمام ابن كثير.

أما رواية ما خالف حاله هذه الأوصاف فلا تقبل، وكذلك لا تقبل رواية أصحاب الأهواء إذا رووا ما يوافق هواهم ولا مجهول الحال.

ويلاحظ أن هذه الضوابط وضعت لهدف سام وهو دفع احتمال الخطأ أو الكذب فى رواية الحديث، حتى تطمئن النفس إلى أن ما روى صح صدوره عن النبى ﷺ.

ولم يكن علماء الحديث يقبلون كل ما يروى عن رسول الله ﷺ، حتى تتوفر فيه شروط الرواية الصحيحة وهذا يدفع بكل قوة ما أثاره منكرو السنة من أن رواة السنة بشر يخطئون ويصيبون. هذه العبارة وإن كانت صحيحة من حيث الجملة، فلا مفهوم لها هنا لأن الشروط التى وضعها علماء الحديث رضى الله عنهم كانت لتحقق الإصابة فى الرواية ودفع الخطأ، وهم أعلم بأسباب الإصابة والخطأ عشرات المرات من هؤلاء الببغاوات، الذين يرددون ما قاله المبشرون والمستشرقون الحاقدون على الإسلام، دون أن تكون لهم ممارسة أو خبرة ذاتية فى هذا المقام الجليل.

إننى على يقين من أن الذين يهاجمون السنة الآن فى الصحف والمجلات لو عقد لأحدهم اختبار فى علوم الحديث مهما طال أو قصر، سهل أو صعب لرسب فيه بالخط الثلث ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

إنهم يتصايحون فى الفضاء، ويحاربون فى الهواء، أو فى غير مواجهة ولو ووجهوا لأنكشفوا وافتضح أمرهم عند الناس، وقديما قال الشاعر:

اذا ما الجبان خلا بأرض   تمنَّى الطعنَ فيها والنزالا

مقلدون لا مبتكرون :

منكرو السنة فى هذه الشبهة: شبهة بشرية الرواة مقلدون - كعادتهم - لا مبتكرون، ما فى ذلك ريب أنهم مقلدون لمكذبى الرسل على مدى التاريخ النبوى كله، فالقرآن الأمين يقص علينا مسالك مكذبى الرسل كلما بلغوهم ما أنزله الله عليهم، وإليك البيان.

فى سورة ابراهيم عليه السلام ورد هذا الحوار المحكى بين الرسل والذين كذَّبوهم من أقوامهم:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [ابراهيم: ١٠ - ١١]

انظر إلى هذا المنطق المعوج الذى واجه به مكذبو الرسل الرسل الذين أرسلهم الله إليهم.

رفضوا رسالاتهم والإيمان بها، بحجة أنهم بشر مثلهم ليس لهم عليهم سلطان.

وهذه شبيه بموقف منكرى السنة، الذين يرفضون السنة بحجة، أو شبهة أن رواتها من الصحابة، والتابعين بشر؟!

ثم انظر إلى صوت الحكمة العالية فى رد الرسل على هؤلاء المكذبين: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

ونذكر القارئ أن منكرى السنة رفضوها فى هذه الشبهة، لأن رواتها بشر يخطئون ويصيبون نذكر القارئ بهذا لنبين له لطيفة من لطائف بلاغة القرآن، وهى أنهم وصفوا البشر بأنهم يخطئون ويصيبون وهذان الوصفان متحققان فيما حكاه القرآن فى هاتين الآيتين: أعنى الإصابة والخطأ.

فالمخطئ هم مكذبو الرسل، ومثلهم منكرو السنة، لأنهم جميعًا اعتمدوا فى تكذيب الرسل، وتكذيب السنة على علة واحدة، هى بشرية الرسل والرواة.

أما المصيبون فهم الرسل، والمؤمنون بسنة خاتمهم ﷺ، المحتكمون إليها فى حياتهم طاعة لله ورسوله ومثل هذا ورد فى سورة «يس» فى الحديث عن أصحاب القرية:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ [يس: ١٣ – ١٥]

هذا هو التقليد الذى سار عليه منكرو السنة، فليس لهم من قدوة إلا مكذبو الرسل، وليس لمكذبى الرسل من إمام إلا الشيطان، الذى يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

وقد حكى عنهم القرآن هذه المقولة فى سور أخرى كالأعراف والفرقان والقمر وغيرها، من السور التى فيها قصص الأنبياء ومما حكاه عن مشركى العرب من رفضهم لرسالة محمد ﷺ، قوله عز وجل:

﴿ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣]

وقولهم عن القرآن فى بيان رفضهم له:

﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٥]

فهل ترى من كبير فروق بين مكذبى الرسل، وبين منكرى السنة المطهرة.؟!

إنهم – جميعا – مكذبون للرسل فى أصول ما جاءوا به، وفى فروعه.

* * *